القضايا النّقديّة في كتاب النّظرات للمنفلوطي: اللفظ والمعنى والبيان نموذجًا

The Critical Issues in al-Manfaluti's Book *"al Nazarat"*: Form, Meaning and Expression as a Model

دكتور وِيدْرَاوْغُو إِنُوسَا

جامعة السّلطان أحمد شاه الإسلاميّة، بهنج، ماليزيا

الملخص

كثر الجدل عند النّقاد منذ القدم حول قضايا نقديّة كثيرة تهدف كلّها إلى الحكم على عمل الشّاعر أو الكاتب بالحسن أو القبح، أو حسن بيانه أو غموضه، في طليعتها قضيّة الصّدق والكذب، السّرقات الشّعريّة، الطّبع والصّنعة، اللّفظ والمعن؛ ذلك لأنّ المعروض عليهم في السّوق العملي أنماط كثيرة من الأعمال لا بدّ من مسطرة تقيّمها؛ فمن شاعر أو كاتب يهتمّ بالمعنى دون اللّفظ، ومن شاعر أو كاتب يهتمّ باللّفظ دون المعنى، وشاعر أو كاتب آخر يهتمّ بهما معًا، ومن حافظ يبالغ في استظهار محفوظاته خلال أعماله الأدبيّة، ومن مكثر لتضمين الألفاظ والمصطلحات الأجنبيّة خلال كتاباته العربيّة. وقد عني بتقييم الأعمال الأدبيّة نظرا إلى كلّ هذه المعطيات وغيرها، كلّ من الجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن جنّي وابن رشيق القيرواني وعبد القاهر الجرجاني، والمنفلوطي.... وغيرهم. ولقارئ المنفلوطي – خاصّة في كتابه النّظرات – أن يلاحظ أنّه ركّز جهوده حيال القضايا المطروحة حول تحديد معيار البيان الحقيقي– وهو يقصد بالبيان فصاحة الأديب وبلاغته أو وضوح أعماله الأدبيّة وجمالها – هل في ألفاظها أو في معانيها أو في اقتباساتها وكثرة تضميناتها للألفاظ الأجنبيّة؟ فيأتي هذا العمل للوقوف على جزئيّة صغيرة اهتمّ بها الكاتب حيال محاولته لتحديد معيار البيان، ألا وهي العلاقة بين اللّفظ والمعنى وأيّهما أهمّ، منتهجًا في ذلك المنهج الوصفي، مجتنبًا قدر الاستطاعة عن الاقتباسات والتّضمينات خشية التّطويل، غير أنّه مع ذلك تمّ عزو كلّ موضوع وكلّ فكرة إلى أصلها من الكتاب.وقد قسّمه الباحث إلى أربعة محاور مع المقدّمة، المحور الأوّل: في التّعريف بالمنفلوطي، والمحور الثّاني: في جدليّة اللّفظ والمعنى قبل المنفلوطي، والمحور الثّالث في علاقة اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي وأيّهما أهمّ، والمحور الرّابع: في بيان معيار البيان عند المنفلوطيّ، مشفوعة بخاتمة ونتائج البحث. وممّا توصّلت إليه الدّراسة، أنّ المنفلوطي يرى أنّه ليس من المعقول الفصل بين اللّفظ والمعنى في الحكم فيكون هذا حسنًا وذاك قبيحًا؛ لأنّ العلاقة بين اللّفظ والمعنى علاقة تجاذبيّة حتميّة فحسن المعنى يعني حسن اللّفظ وقبحه يعني قبح اللّفظ.

الكلمات المفتاحية: اللّفظ والمعنى، العلاقة، البيان، المنفلوطي، النّقد

Abstract

There has been significant controversy among critics since ancient times regarding various critical issues, all aimed at judging a poet's or writer's work as good or bad, clear or ambiguous. Foremost among these issues are truth and lies, poetic theft, originality and craftsmanship, pronunciation, and meaning. This is because the works available in the market come in various types, requiring evaluation by a critic. Some poets or writers prioritize meaning over pronunciation, others prioritize words over meaning, some value both, and there are those like the Hafiz who focus heavily on memorization in their literary works. It is common for foreign words and terms to be included in Arabic writings. Given all these considerations, the evaluation of literary works has involved figures such as al-Jahiz, Ibn Qutayba, Qudamah ibn Ja'far, Ibn Jinni, Ibn Rashiq al-Qayrawani, Abd al-Qahir al-Jurjani, al-Manfaluti, and others. Readers of al-Manfaluti, especially in his book "Nazarat" (Looks), should note that he focused on determining the criteria for a true statement, which involves the eloquence and clarity of the writer's work. Is it found in the words themselves, their meanings, quotations, or the frequent inclusion of foreign words? This study aims to explore a specific aspect of the writer's interest: his attempt to determine the criteria for a true statement, particularly the relationship between pronunciation and meaning, and which is more important. The researcher divided the study into four sections: an introduction, the first section defining al-Manfaluti, the second discussing the dialectic of pronunciation and meaning before al-Manfaluti, the third examining the relationship between pronunciation and meaning according to al-Manfaluti and which is more important, and the fourth stating the standard of true statements according to al-Manfaluti. This is followed by a conclusion that summarizes the sections and synthesizes their ideas concisely. Adopting a descriptive approach and avoiding quotations and extensive inclusions to prevent lengthiness, each theme and idea is nevertheless attributed to its origin in the book. The study finds that al-Manfaluti believes it is unreasonable to separate words from their meanings when judging their quality. He argues that the relationship between words and meanings is inherently linked: good meaning results in good pronunciation, and ugliness in meaning leads to ugliness in words.

Keywords: pronunciation and meaning, relationship, statement, manfaluti, criticism

مقدّمة:

مسألة اللّفظ والمعنى تأتي ضمن خضمّ موضوعات كثيرة تتعلّق بالكتابة تناولها الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه النّظرات إلى جانب الموضوعات الاجتماعيّة الأخرى، ولملاحظ المنفلوطي حين يتناول موضوعات الكتابة أن يجد أنّه يسير على نفس المنهج الّذي يعالج به القضايا الاجتماعيّة من الدّعوة إلى البساطة والوضوح، فقضيّة اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي لا تستحقّ كلّ النّزاعات الّتي وجدت حولها، بحيث تنقسم المجموعات إلى أنصار اللّفظ وأنصار المعنى....، فاللّفظ عند المنفلوطي رفيق المعنى الملازم له وحسنه حسنهما وقبحه يعني قبحهما معًا ولا يمكن الفصل بين الاثنين، فإن أبينا إلاّ الفصل بينهما، فكأنّنا ندّعي إمكانية الفصل بين الشّمس وشعاعها، أو الخمرة ونشوتها....وهذا ممّا لا يستقيم عقلاً.

وحين يتناول المنفلوطي قضيّة اللّفظ والمعنى فإنّه يوجّه جهوده إلى إظهار معيار البيان الحقيقي في العربيّة، هل يكمن في الألفاظ أو في المعاني أو في الاقتباسات وكثرة التّضمينات للألفاظ الأجنبيّة؟ ... فيأتي هذا العمل للتّركيز على

جزئيّة اللّفظ والمعنى الّتي تناولها الكاتب مع مسحة يسيرة على عموم مناقشته حول معيار البيان، منتهجًا في ذلك المنهج الوصفي مجتنبًا قدر الاستطاعة عن الاقتباسات والتّضمينات خشية التّطويل، غير أنّه مع ذلك تمّ عزو كلّ موضوع وكلّ فكرة إلى أصلها من الكتاب.

وقد قسّم الباحث هذا العمل إلى أربعة محاور مع المقدّمة، المحور الأوّل: في التّعريف بالمنفلوطي، والمحور الثّاني: في جدليّة اللّفظ والمعنى قبل المنفلوطي، والمحور الثّالث في علاقة اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي وأيّهما أهمّ، والمحور الرّابع: في بيان معيار البيان عند المنفلوطيّ، مشفوع بخاتمة تجمع شتات المحاور وتقرّب أفكارها في صياغات أقصر.

مشكلة البحث:

لا تزال مسألة اللّفظ والمعنى قائمة إلى يومنا هذا وذلك خلال انتقادات الكتّاب لبعضهم البعض أو استحساناتهم للأعمال، وإن قلّت المعارك العلميّة على النّحو الّذي شغّل العلماء القدامى حولها، ولا شكّ أنّ المنفلوطي يعدّ رائد الكتابة الأدبيّة في عصر النّهضة الأدبيّة فالبحث عن موقفه في مسألة قد يُجلي عن موقف كثير ممّن سار على دربه ويرشد إلى الصّورة الصّحيحة للقضايا.

أسئلة البحث:

1. ما العلاقة بين اللّفظ والمعنى عند العلماء القدامى؟
2. ما العلاقة بين اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي؟
3. ما معيار البيان في العربيّة حسب المنفلوطي؟

أهداف البحث:

1. الوقوف على طبيعة العلاقة بين اللّفظ والمعنى عند العلماء القدامى.
2. معرفة طبيعة العلاقة بين اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي.
3. الوقوف على معيار البيان في العربيّة حسب المنفلوطي.

المحور الأوّل/ المنفلوطي، التّعريف به ونشأته، وبيان منزلته:

1). التّعريف به ونشأته:

هو مصطفى لطفي بن محمّد لطفي بن حسن لطفي المنفلوطي، ولد بمنفلوط من أعمال مديريّة اسيوط سنة : 1293هـ الموافق 1876م، ونشأ في بيت كريم بالدّين جليل بالفقه، توارث أهله قضاء الشّريعة ونقابة الصّوفيّة، قرابة مائتي سنة، ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثّقافة فحفظ القرآن في المكتب، وتلقّى العلم في الأزهر، لكنّه مع كلّ ذلك لم يكن يهتمّ بشيء في حياته اهتمامه بالعلوم اللّسانية والفنون الأدبيّة(أحمد حسن الزّيّات، د.ت، ص 46)، وقد كان في ذلك مخالفًا لما أحبّه له أبوه، ولذلك كانت بدايات تجاربه في الكتابة تتمّ في خفية جدًّا ويصوّر حاله بنفسه على ذلك في مقدّمة كتابه النّظرات يقول: "..فكان الّذين يتولّون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني

وبينه كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى، ونزغات الصّبوة ؛ ضنًّا بي–يزعمون– أن أنفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها؛ فكنت لا أستطيع أن ألمّ بكتابي إلاّ في السّاعة الّتي آمن فيها على نفسي أن يلمّوا بأمري، وقليلاً ماكنت أجدها، وكثيرًا ما يهجمونني على ما لا يحبّون، فإذا عثروا في حقيبتي، أو تحت وسادتي، أو بين لفائف ثوبي، على ديوان شعرٍ أو كتاب أدبٍ خُيّل إليهم أنّهم قد ظفروا بالدّينار في حقيبة السّارق أو الزّجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم، والغصص بمكانهم، ما لا يحتمل مثله مثلي، وهم لا يعلمون –أحسن الله إليهم–أنّهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب، الّذي ينقمونها؛ ويَدٌ من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ...."(مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج1 ص10) وقد كان المنفلوطي يحفظ الأشعار ويتصيّد الشّوارد، ويصوغ القريض وينشئ الرّسائل، حتّى أصبح مشهورًا في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب وبذلك نال رعاية الأستاذ محمّد عبده الّذي رسم له أمثل الطّرق في الكتابة ليرتقي لذلك إلى أسمى مستوى في الأدب والحياة؛ إذ استفاد من قربه بالإمام بعلاقة مع سعد باشا زغلول، ومن ذلك تعلّق بصاحب "المؤيّد"، وهؤلاء الثّلاثة كانوا هم أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. (أحمد حسن الزّيّات، د.ت، ص 46).

وقد نسب إليه أثناء طلبه في الأزهر بأنّه هجا الخدّيوي عبّاس فحكم عليه بالحبس مدّة العقوبة، ثمّ لما توفي الإمام محمّد عبده جزع المنفلوطي على رجائه وسنده، وارتدّ إلى بلده مقطوع الرّجاء، ولما صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف عيّنه محرّرًا عربيًّا لها، ولما تحوّل إلى وزارة العدل حوّله معه وولّاه مثل هذا المنصب، ثمّ انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتّى إذا قام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابيّة بمجلس النّوّاب ظلّ فيها حتّى توفي وهو في العقد الخامس من عمره.

2). أخلاق المنفلوطي ومنزلته:

وكان المنفلوطي في أخلاقه قطعة موسيقيّة في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق متلائم الذّوق متناسق الفكر، متّسق الأسلوب، منسجم الزّيّ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقريّة، ولا نشوز الفدامة، كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحسّ في سكون، هبوب اللّسان في تحفّظ، وهذه الخلال تظهر صاحبها للنّاس في مظهر الغبيّ الجاهل، فهو لذلك كان يتّقي المجالس، ويتجنّب الجدل ويكره الخطابة، وإلى جانب ذلك فهو رقيق القلب عفّ الضّمير سليم الصّدر، صحيح العقيدة نفاح اليد، موزّع العقل والفهم والهوى، بين أسرته ووطنيّته، وإنسانيّته(أحمد حسن الزّيّات، د.ت، ص 46).

وقد كان للمنفلوطي شهرة فائقة أكسبتها إيّاه طاقته البيانيّة وأسلوبه الحرّ، وأوصلته إلى ما أوصلته من المناصب الكتابيّة والمكانات السّياسيّة المختلفة، فقد أثّر الرّجل بكتاباته الأجيال المختلفة شبابًا وشيوخًا حتّى غدت مناهج تعليم في مختلف البلاد العربيّة، الأمر الّذي يبعث العقّاد وإن كان من خصومه إلى أن يطلق على

عصره بالعصر المنفلوطي، إلاّ أنّ العقّاد وزميله المازيني والأستاذ طه حسين لم يتركوا المنفلوطي في حرّيّته وعاطفيّته العميقة ومعانيه المكرّرة في ألفاظ متنوّعة؛ فقد وصفوا أدبه بالعنوسيّة والبكاء والادّعاء والانتحال وقلّة المادّة وكثرة اللّحن، كما يرميه طه حسين بأنّه"يقضي ساعات اللّيل ومعظم النّهار بين قلب يجفّ، ودمع يكفّ، وجسم يرتجف، شهيق، وحريق، زفير وسعير"(صلاح حسن رشيد،2014)، أمّا المازني فهو يرى قرّاءه مرضى في نفوسهم وأذواقهم لأنّ أدبه ادّعاء وتقليد ويضيف: "لكن لكلّ كاتب قرّاء على شاكلته منسوجين على منواله"(صلاح حسن رشيد،2014)، كما يصف أدبه في ميزان نقده بأدب الضّعف، والأمثل الّذي يدعو إليه هو أدب القوّة، والعقّاد لا يرى المنفلوطي إلاّمنشئًا لا كاتبًا وأدبه ليس إلاّ صنعة لا طبع فيه(شكيب أرسلان، 2008، ص 9).

المحور الثّاني / جدليّة اللّفظ والمعنى قبل المنفلوطي

من أهمّ القضايا الّتي أثارت فضول النّقّاد القدامى خاصّة حول الشّعر، قضيّة الطّبع والصّنعة، والصّدق والكذب، والسّرقات الشّعريّة إضافة إلى قضيّة اللّفظ والمعنى.

وقد كان الجاحظ يرى أنّ اللّفظ والمعنى كالجسد والرّوح؛ فالألفاظ أجساد والمعاني أرواح، غير أنّ المشهور عن الجاحظ لدى كثير من الباحثين هو كونه من أنصار الألفاظ؛ وذلك بسبب مقولته الشّهيرة:"المعاني مطروحة في الطّريق..."(الجاحظ، 1982، صفحة 269)، وهو يقصد بذلك أنّ إبداع الشّاعر أو الكاتب ليس في المعاني، فالمعاني جاهزة ومعروفة، وإنّما في حسن اختيار الألفاظ وحسن نسجها، وهذا يبدو لي، أنّه يشير أكثر إلى كون الجاحظ يقصد حسن تناسب الألفاظ للمعاني لا كونه ينتصر للألفاظ على حساب المعاني، ويؤكّد ذلك قوله في مكان آخر: "من أراد معنى كريمًا فاليلتمس له لفظًا كريمًا، فإنّ حقّ المعنى الشّريف اللّفظ الشّريف"(الجاحظ، 1982، ص:134).

وابن قتيبة يقسّم الشّعر إلى أنواع حسب جودة ألفاظه ومعانيه؛ فمنه ما حسن لفظ وجاد معناه، وما حسن لفظه ولا فائدة في معناه، وما جاد معناه وقصرت ألفاظه، وما تأخّر لفظه ومعناه معًا(ينظر ابن قتيبة،1982، ص: 64-69).

ولدى قدامة بن جعفر مصطلح "المساواة" ويقصد به أنّ بلاغة الكلام في أن يتساوى اللّفظ والمعنى ولا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه (ينظر قدامة بن جعفر،1302، ص:55).

و يرى ابن جنّي أنّ اللّفظ خدم للمعنى، فلذلك يبقى المعنى أشرف منه لأنّ المخدوم أشرف من الخادم، غير أنّ ابن جنّي يرى أهمّيّة العناية باللّفظ لأنّ قيمة المعنى لا تظهر إلاّ من خلال حسن اللّفظ، وقد عقد بابا خاصًّا حيال توضيح ذلك في كتابه الخصائص للرّدّ على كلّ من يرى أنّ العرب يولون اهتمامًا كبيرا للألفاظ على حساب المعاني؛ حيث يرى أنّ الاهتمام بالألفاظ دليل على الاهتمام بالمعاني، إذ بقدر قيمة ما في الوعاء يُزيّن الوعاء، واللّفظ وعاء والمعنى محتواه (ينظر ابن جنّي، 2008، ص: 151).

ويرى ابن رشيق القيرواني أنّ اللّفظ جسم والمعنى روحه وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته، كما قاله قبله الجاحظ. (ينظر ابن رشيق القيرواني، ج1، ص: 124).

وعلى خطى ابن جنّي في النّظر إلى الألفاظ على أنّها خدم للمعاني ترسّم عبد القاهر الجرجاني، غير أنّ دراسة عبد القاهر للعلاقة بين اللّفظ والمعنى تبدو أوسع وأعمق من غيره؛ إذ جسّدها في نظريّته المعروفة بـ"نظريّة النّظم" والّتي رصد خلالها سرّ بلاغة القرآن وإعجازه، وممّا جاء من آرائه حول اللّفظ والمعنى رأيه بأنّ جمال اللّفظ لا يلزمه جمال المعنى: "إنّ المعاني لا تدين في كلّ موضع لما يجذبها التّجنيس إليه؛ إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرَّفَة في حكمها، وكانت المعاني مالك سياستها المستحقّة طاعتها"(عبد القاهر الجرجاني ،2005، ص: 8).

ويؤمن ابن جنّي بما أسماه بالصّنعة اللّفظيّة ويقصد بها أنّ المتكلّم يستخدم الألفاظ في تراكيب مختلفة لمعنى واحد، مثل: قام محمّد، ومحمّد قام، ففي كلا المثالين محمّد فاعل في المعنى، وإن كنّا نعرب الأوّل فاعلا والثّاني مبتدأ، وهنا يخلص ابن جنّي إلى الحكم بضيق طريق المعنى وسعة طريق اللّفظ. (ينظر ابن جنّي، 2008، ص: 243).

المحور الثّالث/ اللّفظ والمعنى عند المنفلوطي

لقد أعرب المنفلوطي في كتابه النّظرات عن تعجّبه الكبير لأولائك الّذين يفرّقون بين اللّفظ والمعنى في استحسانهم أو استهجانهم للقطعات الأدبيّة؛ فيقولون: حسن لفظها وقبح معناها أو العكس، كأنّما يتصوّرون أنّ اللّفظ وعاء والمعنى محتواه، بحيث يمكن أن تتنوّع صورة المحتوى عسلاً، أو خلاًّ، صافيًا أو كدرًا، ولم يعلموا أنّ اللّفظ والمعنى ليسا إلاّ كالشّمس وشعاعها، والخمر ونشوتها؛ فكما لا نستطيع أن نشقّ هذه أو تلك عن لازمها في الوصف لا نستطيع الفصل بين اللّفظ والمعنى في الوصف، فيكون هذا جميلاً وذاك قبيحًا، أو العكس، فإذا حَسُن الأسلوب حَسُن المعنى معه وإذا قبح قبح معه، وكذلك العكس(ينظر المنفلوطي، النّظرات ج3 ص 545).

ولعلّ المنفلوطي يريد هنا أن ينتقد مذهب ابن قتيبة ومن سار على نهجه في الحكم على القطعات الشّعريّة؛ فقد كان ابن قتيبة يقسّم الشّعر إلى أنواع حسب جودة ألفاظه ومعانيه؛ فمنه ما حسن لفظ وجاد معناه، وما حسن لفظه ولا فائدة في معناه، وما جاد معناه وقصرت ألفاظه، وما تأخّر لفظه ومعناه معًا (ينظر ابن قتيبة،1982، ص: 64-69).

وأكّد المنفلوطي أنّه من المحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، أو المتأثّر عن التّأثير، والمقتنع عن الإقناع، فإذا اضطرب لديك أسلوب كاتب، أو ركّت ألفاظه وغمضت، فلا تصغي إلى قائلها إذا ادّعى أنّ وراءها معان شريفة وعالية، فإنّ اللّفظ لم يغمض إلاّ لأنّ المعنى مضطرب في نفس صاحبه، وإذا أطربك بيت من الشّعر، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك وأنت ساكن، أو هدّأ روعك وأنت ثائر...فاعلم أنّه من بيوت المعاني، وأنّ أثره الّذي تركه فيك روحه ومعناه، وإذا مررت بآخر فاستغلق عليك فهمه وشعرت بجمود نفسك أمامه...فاعلم أنّه لا معنى له ولا حياة فيه(ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج3 ص547).

وبالنّظر إلى موقف المنفلوطي من اللّفظ والمعنى نستطيع أن نلاحظ أنّه لم يختلف مع كثير من النّقّاد الّذين تناولوه من قبله؛ فالجاحظ كان يرى أنّ اللّفظ والمعنى كالجسد والرّوح؛ فالألفاظ أجساد والمعاني أرواح، غير أنّ المشهور عن الجاحظ لدى كثير من الباحثين هو كونه من أنصار الألفاظ؛ وذلك بسبب مقولته الشّهيرة:"المعاني مطروحة في الطّريق..."(الجاحظ، 1982، صفحة 269)، وهو يقصد بذلك أنّ إبداع الشّاعر أو الكاتب ليس في المعاني، فالمعاني جاهزة ومعروفة، وإنّما في حسن اختيار الألفاظ وحسن نسجها. وهذا يبدو لي، أنّه يشير أكثر إلى كون الجاحظ يقصد حسن تناسب الألفاظ للمعاني لا كونه ينتصر للألفاظ على حساب المعاني، ويؤكّد ذلك قوله في مكان آخر: "من أراد معنى كريمًا فاليلتمس له لفظًا كريمًا، فإنّ حقّ المعنى الشّريف اللّفظ الشّريف"(الجاحظ، 1982، ص:134).

ويرى ابن رشيق القيرواني أنّ اللّفظ جسم والمعنى روحه وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته، كما قاله قبله الجاحظ. (ينظر ابن رشيق القيرواني، ج1، ص: 124).

وكان لدى قدامة بن جعفر مصطلح "المساواة" ويقصد به أنّ بلاغة الكلام في أن يتساوى اللّفظ والمعنى ولا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه (ينظر قدامة بن جعفر،1302، ص:55).

أمّا ابن جنّي فكان يرى أنّ اللّفظ خدم للمعنى، فلذلك يبقى المعنى أشرف منه لأنّ المخدوم أشرف من الخادم، غير أنّ ابن جنّي يرى أهمّيّة العناية باللّفظ لأنّ قيمة المعنى لا تظهر إلاّ من خلال حسن اللّفظ، وقد عقد بابا خاصًّا حيال توضيح ذلك في كتابه الخصائص للرّدّ على كلّ من يرى أنّ العرب يولون اهتمامًا كبيرا للألفاظ على حساب المعاني؛ حيث يرى أنّ الاهتمام بالألفاظ دليل على الاهتمام بالمعاني، إذ بقدر قيمة ما في الوعاء يُزيّن الوعاء، واللّفظ وعاء والمعنى محتواه (ينظر ابن جنّي، 2008، ص: 151).

وعلى خطى ابن جنّي في النّظر إلى الألفاظ على أنّها خدم للمعاني ترسّم عبد القاهر الجرجاني، غير أنّ دراسة عبد القاهر للعلاقة بين اللّفظ والمعنى تبدو أوسع وأعمق من غيره؛ إذ جسّدها في نظريّته المعروفة بـ"نظريّة النّظم" والّتي رصد خلالها سرّ بلاغة القرآن وإعجازه، وممّا جاء من آرائه حول اللّفظ والمعنى رأيه بأنّ جمال اللّفظ لا يلزمه جمال المعنى: "إنّ المعاني لا تدين في كلّ موضع لما يجذبها التّجنيس إليه؛ إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرَّفَة في حكمها، وكانت المعاني مالك سياستها المستحقّة طاعتها"(عبد القاهر الجرجاني ،2005، ص: 8).

وربما الفرق الدّقيق الّذي يميّز موقف المنفلوطي عن موقف غيره من العلاقة بين اللّفظ والمعنى، هو أنّه – خلال ما تمّ ذكره سابقًا من آرائه– يرى العلاقة بين اللّفظ والمعنى علاقة تجاذبيّة حتميّة؛ أي أنّ الأهمّ وضوح المعنى المراد قوله لدى المتكلّم أو الكاتب، فإن وضح المعنى أتت ألفاظه واستجابت طواعية لأنّهما لا ينفصلان عن بعضهما البعض، وبهذا المنظار الّذي يرى خلاله النفلوطي العلاقة بين اللّفظ والمعنى، إذا حسن اللّفظ يعني أنّ المعنى قد

حسن، وإذا قبح يعني أنّ المعنى قد قبح، وإذا وضحت الألفاظ فالمعاني واضحة وإذا غمضت فغموضها نتيجة غموض المعنى عند المتكلّم أو الكاتب.

كلّ ما سبق وما سيأتي في المحور التّالي يؤكّد لنا أنّ المنفلوطي يرى أهمّية البساطة في القول والوضوح والانسابية فيه، ويرى سرّ البلاغة في ذلك، ولذلك بيّن إثر إجابته لبعض النّاس، عندما سألوه عن سبب تركه للشّعر وعدوله إلى النّثر، أنّ الشّعر ليس هو النّظم وليس كلّ ناظم شاعرًا، والشّعر لا يُعرف بالنّظم لإثباته أو النّثر لنفيه، وإنّما يُعرف بسلوك الكلام المسلك الصّحيح للكشف عمّا في ضمير القائل، فإن اعترضه وزن زاده جمالاً، وإلاّ كفاه أن يؤثّر ويبلّغ الرّسالة ويقنع ويستشرك الغير في التّفاعل مع القائل؛ فليس كلّ نظم شعرًا ولا كلّ ناظم شاعرًا، وإنّما اعتاد الشّعراء النّظم في تعبيرهم فألحق بهم خطأ كلّ ناظم وإن لم يقل وإن قال ألف بيت بيتًا، ولا ألف قصيدة قصيدةً(ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج1 ص107).

ثمّ بيّن الكاتب أنّ أفضل تعريف للشّعر، هو أنّه "تصوير ناطق"، فما أكثر الشّعراء في حياتنا لولا أنّ الّذين برز لنا وصفهم بالشّعر أكثر ظهورًا من الآخرين، فالتّماثيل أشعار لأنّها تعبّر عن حياة عظماء، والنّغمات الموسيقيّة شعر لأنّها تعبّر عن العواطف والوجدان، وهدير الأمواج شعر لأنّه يمثّل عظمة الجبّارين، وظلام اللّيل شعر...وحفيف أوراق الشّجر شعر، وبكاء الحمائم شعر...إلخ.

وتحامل المنفلوطي على النّظّامين حملة شديدة وصوّر أشعارهم بأمراض تصدع رؤوس القارئين لها كلّما زادوا في قرضها، وصوّر سطورهم بحيّات رقطاء يُخاف من الاقتراب منها، وأكّد بأنّهم إنّما غرّهم في طريقة نظمهم للشّعر ذلك التّعريف العروضيّ القديم له وهو أنّه "كلام موزون مقفّى"(هذا هو التّعريف الشّائع للشّعر وهو تعريف أبي الفرج قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشّعر، ص: 3) وقد فاتهم أنّ أولائك العلماء الّذين قدّموا هذا التّعريف لم يكونوا شعراء ولا أدباء، ولم يكونوا يعرفون من الشّعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه، فجروا في تعريفهم مجرى العروضيّين الّذين لا يهمّهم من الشّعر غير ما يتعلّق بوزنه وقافيته وعلله وزحافاته.

فالشّعر ليس مجال كلّ قارئ كما يتوهّمه الكثيرون، فإنّه لا يعجز أي أحد من أن يتصوّر نغمة موسيقيّة يخطّط بها سطوره، لكنّ ذلك ليس هو الشّعر، إنّما الشّعر "روح يودّعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته، ولا تزال كامنة فيه كمون النّار في الزّنَد، حتّى إذا شدا فاضت على أسلات أقلامه كما تفيض الكهرباء على أسلاكها"(مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج1 ص107)، ومن لم يجد لنفسه تلك الرّوح فليتجنّب التّسطير والتخطيط، فإنّ المحراث بيد الفلاّح والقدوم بيد النّجّار والمِسبَر في يد الحدّاد أشرف وأنفع من القلم في يد النّظّام.

وقد دعا الكاتب في موضوع "اللّفظ والمعنى"، إلى ألا يدَعَنّ أحدٌ أحدًا من الشّعراء الّذين يضعون التّعريف للشّعر وفق إنتاجاتهم ثمّ يريدون تعميمها على كلّ الأشعار، أن يقنعه بتحديده، بل ليجعل شعوره هو الميزان، كما يشعر بجمال المرأة دون أن يعَرَّف له، ولذّة الطّعام دون أن توصف له. وبيّن أنّ الأدب مرآة لنفس صاحبه وكما لا

تُظهر المرآة غير ما رأتْ، كذلك لا يُظهر الأديب إلاّ حقيقة نفسه (ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج3 ص116).

المحور الرّابع / معيار البيان عند المنفلوطي:

لقد بيّن الكاتب أنّ البيان الحقيقي ليس هو الالتباس في الكلام والعجز عن التّفريق بين ما يخاطب به الأمير والعامّة، والصّديق والعدوّ، وما يقال في الجدّ والهزل والمدح والهجاء، والرّثاء، والغزل، وإنّما البيان أن تبيّن ما تريده دون تصنّع في اللّغة أو تغال في الخيال، وتبذّل في التّعبير وسرد المترادفات، أو استظهار المحفوظات الّتي تشوّه الكلام وتوهن روابطه، إنّما البيان: التّعرّف على طريقة العرب في التّعبير والمدح والهجاء...، ومعرفة أساليبها في الإفصاح عن المراد وتذوّق نورها، والتّمثّل بجوهرها، لا للاختلاس أو الاسترواق وإنّما للاستفادة من طرقها.

وحسب المنفلوطي، ليست العربيّة ضيّقة قاصرة عن التّعبير عن العلوم المحدثة كما يتذرّع بذلك بعض المحدثين إلى استعمالات حديثة لا تستحقّ أن تعدّ من العربيّة في شيء، فإن وجد مايستحقّ ذلك من المصطلحات، فباب المعرّب والدّخيل أرحب من الاستعمالات الشّوهاء (مصطفى لطفي المنفلوطي، 1925، ج1 ص215).

وقد بيّن الكاتب أنّ بعض الكتّاب والشّعراء لا يتقنون إلاّ عندما تفلت منهم كلماتهم فلتًا، ويرسلون في القول إرسالاً، فإذا فكّروا أن يتقنوا أغمضوا المعاني وأعقدوا الأساليب، لأنّهم في الأوّل على طبيعتهم، وفي الثّاني خارجين عنها، وليس البيان ميدانًا للتّباري في غزارة اللّغة ومرادفاتها ونوادرها وشواذّها، ولا متحفًا للصّور والتّراكيب، ولا مخزنًا للمجازات والاستعارات وكثرة الأمثال، إنّما البيان تصوير المعنى القائم في النّفس تصويرًا صادقًا يمثّله في ذهن السّامع كأنّه يراه ويلمسه، وأنّه أشبه ما تكون الجمود اللّغوي بالجمود الدّينيّ بل أنّ الأوّل نتيجة الثّاني، فما ينفكّ علماء الدّين يصعّبونه للنّاس ويتنطّعون فيه حتّى جعلوه غريبًا يستحيل مرافقة الحياة والمدنيّة الحديثة حتّى استثقله النّاس وعافوه، وظلّ اللّغويّون يتحذلقون في ألفاظ اللّغة وأساليبها الوعرة وصورها الغامضة، ويجمدون على ذلك ويحاسبون الخارجين عنه حتّى ملّهم النّاس، فرجع منهم العامّة إلى العامّية والكتّاب إلى شبه العامّية(ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، ج3 ص455).

وقد ذكر الكاتب في صدد تصويره انقلاب الموازين في قضيّة البيان، أنّه عاتب أحد الكتّاب المعقِّدين للغتهم، فكان تبريره أنّه إنّما فعل ذلك لأنّه عرض السّلعتين(السّهل المكشوف المعنى، والمعقّد الغامض) في سوق الأدب فوجد الأوّل مكروهًا لدى النّاس، والثّاني محبوبًا عندهم، فلم ير بدًّا من أن يرضيهم بما يحبّون، لأنّ النّاس في طبيعتهم لا يحبّون من يبذل لهم ويسهّل وصولهم لمطالبهم، فلا بدّ من تغريب السّلعة لديهم حتّى تكون ذات قيمة جذّابة لهم، وليس ما قاله إلاّ عن فئة من النّاس لم يكن يجوز ضياع حقّ النّاس بسببهم(ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، ج3 ص453).

وقد بيّن الكاتب، أنّ الكاتب المعاصر ليس عليه من اللّغة إلاّ أن يفهم قوانينها، ويعرف ألفاظها، ثمّ يتحرّر بعد ذلك للتّصوير عن معاني عصره بالأسلوب المناسب، وأن ليس من الرّأي التّرسّم على خطوات الشّعراء والكتّاب الجاهليّين، والقدامى في عصر غير عصرهم، فإنّهم لو بعثوا اليوم لما وجدوا بدًّا من النّزول إلى لغة العصر وأسلوبه، وعندما تأبى إلاّ تجميد لغتك وحبّ المعاظلة والتّعقيد، فلا تنقم من العامّة جهلهم، ولا تبتئس إذا لم يعبأوا بكلامك لأنّك الخارج عن لغتهم (ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، ج1 ص 215).

وبكلّ ما سبق، يفهم أنّ المنفلوطي ليس ضدّ الإبداع الّذي تتطلّبه التّغييرات العصريّة، وإنّما يرى أنّ الكاتب العربي ما دام لم يأت بلغة جديدة فلا بدّ من أن يتعرّف على أسلوب القدامى الأوّل في تكوين هذه اللّغة والمحافظة عليها فينسج على منوالهم ثمّ ينطلق من ذلك إلى تغليف أسلوبه بما يتطلّبه عصره من الصّور.

خاتمة:

نتوصّل ممّا سبق إلى ما يلي:

1). حسب المنفلوطي، اللّفظ والمعنى لا ينفصلان عن بعضهما كما يتوصوّره بعض النّقّاد، فهما كالشّمس وشعاعها، والخمر ونشوتها؛ فكما لا نستطيع أن نشقّ هذه أو تلك عن لازمها في الوصف لا نستطيع الفصل بين اللّفظ والمعنى في الوصف، فيكون هذا جميلاً وذاك قبيحًا، أو العكس، فإذا حَسُن الأسلوب حَسُن المعنى معه وإذا قبح قبح معه.

2). بناءً على موقف المنفلوطي المذكور حول اللّفظ والمعنى، فإنّه لم يختلف كثيرًا مع كبار النّقّاد قبله إلاّ قليلاً منهم، فقد كان اللّفظ والمعنى في تصوير بعضهم كالجسم والرّوح؛ مثل الجاحظ وابن رشيق القيرواني، وكان يرى بعضهم أهمّية مساواة اللّفظ مع المعنى بحيث لا يفضل أحدهما على الآخر فيكون حشوًا أو يقصر عنه فيكون غامضًا كقدامة بن جعفر...

3). الفرق الدّقيق الّذي يميّز موقف المنفلوطي عن غيره حول العلاقة بين اللّفظ والمعنى هو: أنّه يرى هذه العلاقة تجاذبيّة حتميّة، فكلّ معنى يستدعي لفظه فما على الكاتب إلاّ أن يتأكّد أوّلاً من وضوح المعنى الّذي يريد التّعبير عنه أوّلاً فإن وضح وضح معه اللّفظ حتمًا، والعكس بالعكس؛ أي حين يضطرب المعنى فلا شكّ أنّ اللّفظ سيضطرب ويغمض.

4). معيار البيان عند المنفلوطي: أن تبيّن ما تريده دون تصنّع في اللّغة أو تغال في الخيال، وتبذّل في التّعبير وسرد المترادفات، أو استظهار المحفوظات الّتي تشوّه الكلام وتوهن روابطه، إنّما البيان، التّعرّف على طريقة العرب في التّعبير والمدح والهجاء...، ومعرفة أساليبها في الإفصاح عن المراد وتذوّق نورها، والتّمثّل بجوهرها، لا للاختلاس أو الاسترق وإنّما للاستفادة من طرقها، ثمّ مزجها بما شئت من الصّور المناسبة للعصر الّذي تكتب فيه.

المراجع

- القرآن الكريم.
- أحمد أمين. (2012). **النّقد الأدبي**. د.ط. مؤسّسة الهنداوي. القاهرة.
- الثّعالبي. أبو منصور الثّعالبي. (1956). **يتيمة الدّهر**. ط2. مطبعة السّعادة. مصر.
- الجاحظ. أبوعثمان عمرو بن بحر. (1998). **البيان والتّبيين**. مكتبة الخانجي. ط7. القاهرة.
- الجرجاني. أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجاني. (2005). **أسرار البلاغة**. د.ط. دار المدني. جدّة.
- الجرجاني. عبد القاهر الجرجاني. (2009). **دلائل الإعجاز**. د.ط. مكتبة الخانجي. القاهرة.
- ابن جنّي. أبو الفتح عثمان ابن جنّ. (2008). **الخصائص في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها**.د.ط. دار الكتب المصريّة. مصر.
- الجوهري. أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري. (2011). **تاج اللّغة وصحاح العربيّة**. دار الحديث. القاهرة.
- ابن رشيق القيرواني. الحسن ابن رشيق القيرواني. (2006). **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه**. د.ط. مكتبة نور. تركيا.
- الزّيّات. أحمد حسن الزّيّات. (د.ت). **تاريخ الأدب العربي**. ط2. دار النّهضة. القاهرة.
- غنيمي هلال. محمّد غنيمي هلال. (2005). **النّقد الأدبي الحديث**. ط6. شركة نهضة مصر. القاهرة.
- ابن فارس. أبو الحسن أحمد بن فارس. (2015). **معجم مقاييس اللّغة**. د.ت. دار الجيل. بيروت.
- ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينويري. (1982). **الشّعر والشّعراء**. ط2. دار المعارف. مصر.
- قدامة بن جعفر. أبو الفرج قدامة بن جعفر. (1302). **نقد الشّعر**. ط1. مطبعة الجوانب. قسطنطينيّة.
- القزويني. الخطيب القزويني. (2003). **الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)**. ط1. دار الكتب العلميّة. بيروت لبنان.
- ابن منظور. محمّد بن مكرم بن منظور الأنصاري. (2016). **لسان العرب**. ط1. دار المعارف. مصر.
- المنفلوطي. مصطفى لطفي. (1925). **النّظرات**. د.ط. دار مصر.